الهم العلمي وطنْبوره!*

قبل أيام كتب صديقنا الأستاذ / مجيب الرحمن الأحلسي عن مهنة التنقيب عن هيليوم٣، باعتبارها أسرع وسيلة للثراء السريع.

فرد عليه أحد المعلقين، بلغة دارجة مستهزئا من طرح الأحلسي حول العلوم، في وقت الناس مشغولة بالهم السياسي!

فرد الأحلسي، محاولة توضيح ما أراد إيصاله من طرح موضوع التنقيب عن هيليوم٣ :

" يا أيها المجتمع العربي المتخلف، الغارق في الفتن، إن بشرا مثلكم في الصين وروسيا وامريكا سيتقاسمون ثروات الفضاء بسبب اجتهادهم في التعليم وحفظ أنفسهم بالسلام والتعايش السلمي، بينما أنتم مازلتم تنفخون في العصبية وشعارات الفتن والتخلف.

* نشر المقال في موقع العربي بتاريخ ٢٣ أغسطس ٢٠١٦م.

كأننا نقول للناس أن هناك بديل للتقاتل على ثروات محدودة هو العلم الذي يفتح ثروات هائلة يمكن تكفي الجميع.

نحن نقوم بالتوعية ونبحث عن بيئة حاضنة للعلم والمعرفة، بينما مازلتم لمستنقع الفتن تحشدون".

حادثة بسيطة، لكنها تبين مدى غياب الحاضن الاجتماعي للعلوم في البيئة العربية؛ هذه البيئة التي تستهلك التكنولوجيا وتتفاخر في استخدامها ومع ذلك لا تحترم العلم، بل ولا تقيم له مقدار!

ويصبح الإعلامي العلمي في هذه البيئة مثل الذي يروّج لبضاعة ثمينة، لأناس لا يعرفون قيمتها، فيزهدون عنها وعنه.

الحواضن العربية

المجتمع العربي لديه حواضن للسياسة والرياضة والطرب، لكن ليس لديه حاضن للعلوم، ودعونا نرصد الظواهر حولنا؛

أما الحاضن السياسي، فأظن أحوالنا (الحالية) تأتيكَ بالأخبارِ منْ لم تزودِ!

فلا يخفى عن المتابع انقسام الشارع العربي بعد أحداث ٢٠١١م إلى فئات متباينة، إلى حد التناحر !

أما الحاضن الرياضي؛ فحين تقام مباراة كرة قدم بين فريقي ريال مدريد وبرشلونة، ينقسم الشارع العربي إلى فسطاطين حول الأمر، دون أن يكون لهم ناقة ولا جمل في ذلك!

ويعلن بعض ناشئتنا حالة الطوارئ أثناء إقامة مباريات كأس العالم أو دوري أبطال أوروبا!

رغم أنه لا يوجد فريق عربي وصل لدور الثمانية في تصفيات كأس العالم.

وفي الطرب، انظر (هوس) طبقة الشباب بمطربيهم، خصوصا مطربي الأغنية الشبابية التي جاءت على غرار هذه العصر، في سرعتها وتشنجها وكلماتها المجلوبة من سوق الخضار – كما يقول الشاعر نزار قباني!

ومع هذا فإني أجد أن كل هذا أمر صحي – إذا وجّهنا الذوق نحو الأفضل إجادة، وبدون غلو ولا تنطع.

لكن أين الحاضن العلمي؟

يتجلى البون الشاسع بين وجود الثلاثة السابقة لدى الجماهير العربية وتفاعلها معها وبين إهمالها للهم العلمي، ويمكنك أن ترى هذا بوضوح في التباين الشاسع بين اهتمام الناشئة بمباريات كأس العالم ودوري أبطال أوروبا وبين اللامبالاة تجاه أخبار جائزة نوبل.

وكذلك بين وجود مجلات متخصصة لكل هم من الهموم الثلاثة السابقة وعدم أو ندرة وجود مجلة علمية منتشرة بين الجماهير، وعدم مبالاة الصحف العربية بموضوع العلوم وتبسيطها، ونشر أخبارها بشكل غير مدروس ولا مخطط له إلا لتغطية مساحة فارغة، في حين" لا تخلو أي صحيفة أو مجلة أمريكية من صفحات علمية، يحررها متخصص قادر على تبسيط حقائق العلم الحديثة، وعرضها بصورة يستطيع كل قارئ أن يستوعبها".

إن صناعة حاضن للعلوم في مجتمع لم يتفق على تعريف العلم بعد، لهو من سابع المستحيلات!

خطوات صناعة حاضن مجتمعي للعلوم

الخطوة الأولى التي يجب أن نخطوها لصناعة حاضن مجتمعي للعلوم، في مجتمعنا العربي خصوصًا، الذي صنّف العلم اليوم بين العلم الديني – الشرعي – والعلم الدنيوي، هي الاتفاق على تعريف العلم نفسه، ومنهم العلماء أصلا ؟

فمنْ هم الذين نضفي عليهم لقب (العلماء)، هل هم علماء الشرع أم علماء الدنيا؟

إن الإجحاف بعينه هو إضافة صفة (العالِم) على رجل الشريعة دون غيره، كما هو منتشر بين الناس أن هذا هو العالِم.

فمن أين جاء هذا الفهم؟

لو راجعنا تعريف العلم على أنه" إدراك الشيء بحقيقته "، فمن هذا التعريف ينسحب لفظ العلم على كل إدراك لكُنه الأشياء وحقائقها؛ فما يمارسه عالِم الكيمياء أو الفيزياء أو العلوم الطبيعية الأخرى يدخل ضمن مسمى العلم.

أما عالِم الشريعة فهو في حقيقة الأمر يتعامل مع نصوص مكتوبة أو مسموعة، دون أي تجربة مختبرية يجريها فهو- وإن انسحب عليه لفظ العالِم - في الأصل فقيه؛ لأن " الفقه العلم بأحكام الشريعة، وتفقه إذا طلبه فتخصص به قال تعالى: { لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ } [التوبة : ١٢٢])"، والعرب تقول: " لكل عالِم بالحلال والحرام فقيه ".

وعلى ذلك، يكون " الفرق بين العلم والفقه هو أن العلم بمقتضى الكلام على تأمله، تقول لمن تخاطبه تفقه ما أقول أي تأمّل لتعرفه، ولا يستعمل إلا على معنى الكلام ومنه قوله تعالى:{لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} [الكهف : ٩٣]، وسمّي علم الشرع فقهًا، لأنه مبني على معرفة كلام الله وكلام رسوله".

وفي الإنجليزية، يفرقون بين عالِم الشرع أو الدين فيسمونه (scholar) وبين عالِم الطبيعيات فيسمونه (scientist).

وبعد ذلك، إشاعة التفكير العلمي، وهو ذلك النوع من التفكير المنظم، الذي يمكن أن نستخدمه في شئون حياتنا اليومية، أو في النشاط الذي نبذله حين نمارس أعمالنا المهنية المعتادة، أو في علاقاتنا مع الناس ومع العالم المحيط بنا.

وكل ما يشترط في هذا التفكير هو أن يكون منظما، وأن يبنى على مجموعة من المبادئ التي نطبقها في كل لحظة، دون أن نشعر بها شعورا واعيا.

ولا يعني التفكير العلمي أن نلم بقوانين العلوم ومعادلاتها، إنما أن نعمل العقل والمنطق فيما يعترض حياتنا من ظواهر ومشاكل، بعيدا عن ربط الأحداث بالخرافات والغيوب بشكل مفرط!

و"العقلية العلمية يمكن أن يتصف بها الإنسان العادي، حتى لو لم يكن يعرف نظرية علمية واحدة"، كما يقول د/ فؤاد زكريا في كتابه التفكير العلمي.

فالتفكير العلمي أكبر مفكك للخرافة، وأكبر متصدي للشائعات، ولأننا – في الوطن العربي (الكسير)- لا ننتهج التفكير العلمي في حياتنا، لذا تنتشر الشائعات لدينا بسهولة ويسر.

والذي يصنع هذا التفكير العلمي هو التعليم الحقيقي، البعيد عن الحشو والتلقي والحصول على (كرتونة) الشهادة، بل تعليم يجمع بين المتعة والفائدة في الوقت نفسه، قائم على

مشاهدة المعلومة وتلمسها أكثر من السماع عنها، في زمان انتشرت وسائل التعليم في كل زاوية من ثبج شبكة الإنترنت.

تعليم لا يريد من الطالب أن يخزّن المعلومات في ذهنه قبل الامتحان، (ليتقيأها) على ورقة الإجابة أثناء تأدية الامتحان وانتهى الأمر، فلا وجود لتلك المعلومة في حياته اليومية ؟!

الأمر يحتاج لجهود عظيمة بل جبارة، لكن بقائنا على هذه الأرض مرهون بمدى نجاحنا في التحول إلى مجتمع المعرفة"؛ ذلك المجتمع الذي يقوم أساساً بنشر المعرفة وإنتاجها وتوظفها بكفاءة في جميع مجالات النشاط المجتمعي: الاقتصاد، والمجتمع المدني، والسياسة، والحياة الخاصة، وصولاً لترقية الحالة الإنسانية باطراد، أي إقامة التنمية الإنسانية".

فإن المعرفة أصبحت تؤلف - وبشكل متزايد - ليس فقط أساس القوة، ولكن أيضا أساس النجاح والتقدم.

ولنتذكر عبارة الدكتور محمد عبدالسلام -الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء لعام ١٩٧٩م - حيث قال " إن النهضة العلمية مشروطة بأن يشمل حب المعرفة المجتمع

كله، وأن يكون سعيه في سبيل العلم هو سابق إصرار وتصميم، وهذا أيضا هو بمثابة قانون اجتماعي سرى على كل المجتمعات؛ فالثورة الصناعية في أوروبا لم تأتِ بمحض الصدفة، بل نتيجة عمل هادف ودؤوب قام به رجال جعلوا حب المعرفة رائدهم في الحياة".

هذا هو السبيل حتى لا نصبح مع كل حدث علمي مثل (طنْبوره)، في المثل العراقي الشهير (عَرَبْ وين، طنْبوره وين)!

***

openkandl.com